مفهوم (السياسية الكبرى) في فلسفة نيتشه السياسية

أيمن بوطرفة
مخبر الفلسفة وتاريخها , جامعة وهران 2
تحت اشراف : أ.د منير بهادي

الملخص

تعتبر الفلسفة النيتشوية أحد أكثر الفلسفات جذرية ونقدية في تاريخ الفلسفة بعامة , بفعل شموليتها وامتداداتها لعديد مجالات الحياة. على المستوى السياسي , ينطلق نيتشه من نقد الحداثة السياسية , حيث قادت هته الأخيرة قادت الى انتشار الأفكار الديمقراطية والاشتراكية وما يسميه نيتشه بالمساواة العدمية , ونموذج الدولة-الأمة , التي تنتمي الى ما يسميه نيتشه ب(السياسة الصغرى). وعلى النقيض يقترح نيتشه فلسفة سياسية تقوم على مفهوم (السياسة الكبرى) حيث الدعوى لسياسة أكثر توسعية وأكثر انفتاحا أيضا. فتظهر دعوة نيتشه لمشاريع من مثل الوحدة الأوروبية ومفهوم الانسان الأسمى الذي يقابله النموذج السلبي لخاتم البشر في المشروع الديمقراطي الحداثي. ان السياسة الكبرى هي سياسة الانسان الأسمى.

الكلمات المفتاحية : نيتشه ; السياسة الكبرى ; فلسفة سياسية ; الانسان الأسمى

Summary :

We can say that the philosophy of Nietzsche is one of most radical and most critical of all the history of the philosophy. Because of his exhaustiveness and its extension in diverse Domains of life. On the political level Nietzsche begins with the criticism of the political modernity, of which she leads to the democracy and to socialism, and what calls Nietzsche the

egalitarian nihilism , , and the model of the nation state, which belongs to what calls Nietzsche the (small policies). On the other hand Nietzsche develops a political philosophy based on the notion (big policy), which leads us to a more expansive and more open policy. Of it Nietzsche calls up to the European unity and the notion of the Übermensch , Which contradicts models her denial of the (last man) in the sphere of the modern democracy. We can say that the big policy is the policy of the Übermensch.

Key word: Nietzsche ; big policy ; political philosophy ; Übermensch

تقديم

تعتبر الفلسفة النيتشوية أحد أكثر الفلسفات جذرية في تاريخ الفكر الفلسفي بعامة , فقد أشتهر عن نيتشه حسه النقدي في التطرق لإشكاليات الأخلاق , الدين , الحداثة. لكن مع ذلك تبقى عديد الجوانب المخفية , أو لنقل قليلة التناول والتباحث في فلسفته. والقصد هنا على أفكاره السياسية تحديدا. فلا يثير القلق والجدل والاختلاف في فلسفة نيتشه أكثر من آراءه وأفكاره السياسية.

من هنا كانت هته الدراسة تتطرق لمجال غامض من مجالات فلسفة فريدريك نيتشه , أي فلسفته السياسة , وتحديدا جزئية مفهوم "السياسة الكبرى". من حيث أن المفهوم يعد من أحد المفاهيم المركزية في أفكار فيلسوف الانسان الأسمى السياسية , ترافقا مع مفهوم الإنسان الأسمى وإرادة القوة أو الاقتدار. وحيث أنه كثيرا ما يلاحظ في بعض الدراسات حول نيتشه ما يحيله للنازية ودعم القومية الألمانية بطريقة يمكن تصنيفها بالعنصرية , فان القارئ لأعمال نيتشه يستشف رأيا مخالفا لتلك التصنيفات النمطية. فنيتشه هو في آن ينخرط في تمجيد الثقافة الألمانية و نقدها , في أكثر من محضر وخصوصا في أعماله الختامية يتبنى نيتشه وجهة نظر نقدية تجاه الثقافة الألمانية والفكر القومي بالعموم. حيث لا يتردد نيتشه في وصم القوميين والدولاتيين بالتعصب وبضيق الأفق وبالانحطاط.

من هنا يطرح التساؤل الرئيسي الذي ستحاول هته الدراسة الإجابة عنه : *فيما يتمثل مفهوم السياسة الكبرى النيتشوي؟ وما طبيعة الافكار السياسية لنيتشه؟*

1. تعريف السياسة الكبرى

بالعودة للبحث عن الأصول اللغوية للمصطلح , فإن مصطلح "السياسة الكبرى" ليس مصطلحا ابتدعه نيتشه. فلم يكن الفيلسوف الألماني أول من صاغه ولا أول من استعمله. فنيتشه استعمل هذا المصطلح للتعبير عن فكرة سياسية معينة. وعبر

مختلف كتابات نيتشه نجد استعمالا متفاوت الدلالة لمفهوم السياسة الكبرى , لذا قبل التطرق لتفاصيل المفهوم وجب أولا تحديد تعريف مفاهيمي للمصطلح موضع الدراسة.

يمكن أن نفرق بين استعمالين مفهوميّين للسياسة الكبرى عند نيتشه , فنيتشه يتناول مصطلح السياسة الكبرى من زاويتي نظر مختلفتين : الأولى هي استقراء للمصطلح ببعده التداولي , والثانية هي الاستعمال التوظيفي للمصطلح.

يتحدد المستوى الأول باستقبال المصطلح في بعده التاريخي , حيث أن نيتشه يبدي وجهة نظر نقدية تجاه مفهوم السياسة الكبرى كما تم استعماله في تاريخية البيئة الثقافية الألمانية. فتلقي المصطلح يأخذ في هذا الجانب بعدا سلبيا وايجابيا في نفس الوقت. حتى وان كان نيتشه يعمد إلى إظهار الجانب السلبي فيه قبيل إعادة تلقفه وإعادة تدويره في المنظومة الفلسفية النيتشوية. من خلال هذا النص المستقطع من كتاب "إنساني مفرط في إنسانيته" يعمد نيتشه إلى تسليط الضوء على الآثار الجانبية للسياسة الكبرى المتداولة في القديم وحتى القرن التاسع عشر , مسلطا الضوء على مخاطرها بالنسبة للحرية الفردية.

" وكما أن شعبا ما لا يتكبد في الحروب والاستعدادات للحروب خسائر جسيمة , فقط من خلال تكلفة الحرب وتعطل التجارة والمواصلات ومن جراء الإنفاق على الجيوش الرسمية , مهما كانت هذه الخسائر باهظة في عصرنا الحاضر حيث تنفق ثمانية بلدان أوروبية مبلغ ما بين المليارين والثلاث مليارات في هذا المجال , بل من خلال انتزاع عدد مهول من أكثر الرجال كفاءة وأمتنهم بنية وأكثرهم نشاطا وإبعادهم عن أشغالهم وأعمالهم الأصلية ليتحولوا إلى جنود , كذلك فان أمة تطرح على نفسها أن تمارس سياسة عظمى وأن تضمن لنفسها صوتا مسموعا بين الدول العظمى , سيكون عليها أن تتكبد خسائر أخرى غير تلك التي نتوقعها عادة ... ستكون حصيلة كل هذه التضحيات والخسائر من طاقات الأفراد ومن العمل هائلة الارتفاع بحيث يصبح الازدهار السياسي لشعب ما مرفوقا بصفة شبه حتمية بتفقير وكلل ذهنيين , وبتقلص في القدرة على انجاز أعمال

تتطلب قدرا كبيرا من التركيز والانتباه , بالنهاية يحق لنا أن نتساءل: هل كل هذا البهرج _الذي لا يتجسد بالنهاية إلا بالخوف الذي سيكون لبقية الدول أمام العملاق الجديد ,وفي الامتيازات المنتزعة من الخارج لصالح ازدهار التجارة والمعاملات _يستحق كل هذا الاهتمام وهل كان لا بد , من أجل هذه الزهرة المصطنعة الفجة والمزوقة , أن تتم التضحية بكل النباتات الأكثر نبالة والأكثر رقة والأكثر ذكاء."(نيتشه , 2014 :342-343)

يتم التنبيه أيضا إلى خطورة التأويل الخاطئ والاستعمال المحرَّف لاستراتيجيات السياسة الكبرى : " *إن الاستمرار في نفخ الأبواق المسيحية في أمور السياسة الكبرى , مثلا في بيانات النصر أو في الخطب الإمبراطورية الموجهة إلى الشعب , هو من الأشياء التي بدأت تصير بغيضة أكثر فأكثر ,لأنه مناف للذوق* " (نيتشه , 2011: 42).

على المستوى الثاني فان نيتشه في هته المرة ينقلب الى منظِّرٍ للمفهوم. هنا يغدو مصطلح السياسة الكبرى مفهوما جوهريا في نموذج المنظومة الفلسفية السياسية النيتشوية. فنيتشه في هذا المحضر يصبح داعيا ومبشرا بالسياسة الكبرى , حيث تتحول السياسة الكبرى إلى أمل مشروع مستقبلي , أي يتم تناولها في بعدها الايجابي.

إن السياسة الكبرى وجوهرها الاقتدار , تكون بهذا المعنى التمثل السياسي لإرادة الاقتدار , أي تجسد إرادة الاقتدار على شكل مشروع ونموذج سياسي. " *مهما يكن الحيز الذي تشغله مصلحة وغرور الأفراد والشعوب في السياسة , فان القوة التي تدفعهم إلى الإمام هي حاجتهم إلى قوة , التي تنفجر من ينابيع لا تنضب من حين لآخر , ليس فقط في نفوس الأمراء والأقوياء , بل كذلك لدى الطبقات الدنيا من الشعب وبنفس القدر تقريبا"* .(نيتشه ,2013: 134)

إن نيتشه يرى نفسه بأنه نقيض لسياسة عصره , لهذا يرفضها قاطعا , داعيا إلى البديل آخر. أي إلى السياسة الكبرى. من هنا يعلن نيتشه رفضه لسياسة عصره , مخصصا رفضه هذا

لنموذج الدولة\الأمة والأفكار القومية التي بدأت تجتاح أوروبا بداية من معاهدة وستفاليا وبداية تحقق مشروع الحداثة السياسية. والقومية الألمانية على الخصوص التي جذبت وشكلت غواية للمفكرين الألمان أمثال هيجل وفخته وريتشارد فاغنر. فنيتشه يصف نفسه بأنه "أوروبي صالح" بمعنى أنه معاد لتوجهات السياسة القومية التي سادت عصره , فيصف نفسه بالآتي : " *إني لا أعاني أي صعوبة في أن أكون (أوربيا صالحا) ...أنا الذي يمثل آخر الألمان المناقضين للسياسة "*.(Nietzsche, 2011 :12)

في نظرة استشرافية لمستقبل السياسة الكبرى. فإنها كسياسة للمستقبل , ليس مرجحا أن تظهر بسلاسة , بل يرجح أن تتبلور عقب ولادة قيصرية. ربما ستكون الأصعب في التاريخ : " *الفكرة السياسية ستصبح حين إذ مستوعبة كليا في صراع الأرواح , وكل تداخلات قوى المجتمع القديمة ستصبح مكشوفة للعالم , على أنها مبنية على الزيف. ستكون هنالك حروب لم تشهد الأرض مثلها من قبل. انطلاقا مني ستكون بداية السياسة الكبرى في الأرض*".(Nietzsche, 2011 :127)

في تعريف آخر السياسة الكبرى تظهر هته المرة كدواء وترياق ضد الهوية القومية المنغلقة : " *إنهم يجهلون دائنا نحن الألمان , في الذوق. داء يتم مؤخرا مداواته بحزم كبير , أي ب"الدم والحديد "أو ما أقصده ب"السياسة الكبرى" . هذا الدواء الخطير الذي مازلت أنتظر دائما وأبدا عواقبه , لكن دائما بيأس "*.(Nietzsche, 1913 :283)

يشيد نيتشه بشخصيات أمثال تشيزاري بورجياCésar Borgia , فريدريك الثاني Friedrich II , نابليون وكل من قاد ما يمكن تسميته بالسياسة الكبرى , سياسة أوروبية منفتحة , وليس سياسة قومية. ربما يكون شعار تشيزاري بورجيا معبرا أكثر على هذا الطرح: "إما قيصر أو لا شيء". في هذا الجانب يظهر نيتشه جاذبية صريحة للتوجهات الامبريالية. فالامبريالية والتوسعية عند نيتشه أرحم بمراحل من انحطاط السياسة الصغرى المجسدة تحديدا في الديمقراطية ونموذج الدولة/الأمة.

وهذا ما جعل جورج لوكاتش أحد اهم المنافحين عن الاشتراكية في الفكر المعاصر يصنف نيتشه بأنه أكبر اعداء الديمقراطية والاشتراكية والعقلانية الحداثية , وصفه بأنه : *نبي ومؤسس اللاعقلانية في طورها الامبريالي*.(لوكاكش ,1981: 93)

لقد رأى نيتشه في السياسة الكبرى نقيضا لما يسميه السياسة الصغرى , التي سادت عصره تحديدا. مع السياسة الكبرى فان نيتشه يدخل مفهوما جديدا لحقل الدلالة الفلسفية السياسية. حيث يحيلنا إلى غاية فلسفته بعامة , ألا وهي التمهيد لظهور عصر بطولي جديد , يخلف ويتجاوز أنقاض العدمية الحداثية , التي انهكت روح الإنسان المبدع الحرة. بهذا يطرح مفهوم السياسة الكبرى تقابلات سياسية مهمة يمكن على اثرها استيعاب الفكر السياسي النيتشوي : الوحدة الأوروبية في مقابل القوميات التجزيئية والدولة القُطرية. الأوروبي الصالح في مكان المواطن الديمقراطي. إرادة الاقتدار في مقابل العدمية.

2. الوحدة الأوروبية

أظهر نيتشه عبر مختلف نصوصه نفوره الظاهر من القوميات المتصاعدة في عصره وما يصاحبها من تصاعد للأفكار الاشتراكية والديمقراطية. حيث على النقيض من السياسة الكبرى التي يدعو اليها , رأى في كل هذا الامر ما يسميه بالسياسة الصغرى. سياسة القوميات الأوروبية والتجزيء والقُطرية. وفي مقابل نفوره من هذا الأمر , كان نيتشه يتلهف بوضوح لنموذج السياسة كبرى التي تجسدها الوحدة الأوروبية , والتي يتجسد فيها المواطن الأوروبي المنفتح الهوية بدل مواطن الدولة القومية المقولب.

إن الوحدة الأوروبية هي مثال كان نيتشه يرجوه أن يتحقق عبر تبني استراتيجيات الوحدة الأوروبية , التي تشكل الامتداد التطبيقي لسياسة الانسان الأسمى. لقد كانت إستشرافات نيتشه الطامحة , تتأمل الماضي والمستقبل في نفس وقت احتقارها للحاضر_زمن نيتشه_. فنيتشه هو القائل بأن أفكاره هي تأملات لغير أوانها(Nietzsche ,1907). يظهر نموذج أوروبا الموحدة في الإمبراطورية الرومانية الما-قبل مسيحية كمرجعية

تاريخية للسياسة والكبرى و الوحدة الأوروبية , حيث أمل نيتشه في نموذج مستقبلي لأوروبا موحدة ينجزه الإنسان الأسمى المرجو ظهوره. صحيح أنا مع نيتشه في اطار العالمية الكلاسيكية و ليست الكونية على ما تمثله العولمة اليوم أو أفكار الفلسفة الرواقية والكانطية. وعموما فق نيتشه ناقدا لأفكار الرواقيين ورافضا لأفكار كانط. حيث رأى بأن مشروعه للسلام الدائم ما هو إلا عبارة عن وهم منمق. *فوعد السلام ووعد شيخوخة هادئة مثالية , لا تحدث في نفوسنا إلا الخوف وتجعلنا نخشى من الحرب والصراع*.(kynast,2014 :114) في حين أن الصراع هو جوهر الحياة وآليتها الضرورية للاستمرار

ان نموذجه المرغوب أو من يسميهم ب"الأوروبيين الصالحين" هم أولئك الذي يتجاوزون عاطفتهم القومية والوطنية لكي يتمكنوا من انجاز أكبر المشاريع والغايات , وأهمها سياسيا , مشروع الوحدة الأوروبية.

تمثل النزعة القومية الوطنية المنغلقة على ذاتها مثالا للانحطاط السياسي في فلسفة نيتشه , من منطلق أنها نتاج عدمية السياسة الحداثية. النزعة نحو المساواة العدمية وقصر النظر تشكل كلها أبرز مظاهر ما يشكل منظومة السياسة الصغرى.

في توجه تبجيل العالمية ونقد الانسداد القومي القُطري , لا يتوانى نيتشه في إبداء إعجابه بشخصية نابليون بونابرت وعظمتها , فما نشد نابليون تحقيقه في أوروبا يبقى آخر محاولات السياسة الكبرى بحسب نيتشه. شخصيات فكرية أخرى تساهم في دعم مشروعية الوحدة الأوروبية هته , سواء بقصد أو عن غير قصد. هؤلاء جميعا يدخلون في تصنيف الأوروبيون الصالحون. يقول نيتشه في هذا الصدد : " *بفضل التباعد المرضي الذي نصبه جنون القوميات حاجزا بين شعوب أوروبا وما يزال ,وكذلك بفضل سياسيي النظر القصير واليد الرشيقة الذين يتربعون اليوم على القمة. بمساعدة ذلك الجنون لا يدرون البتة أن سياسة التفرقة التي يمارسونها ستكون مجرد وصلة بين فصلين , بل لا يدرون إلى أي حد لا بد للأمر أن يكون كذلك. بفضل كل هذا وغيره من أمور لا يمكن التعبير*

عنها اليوم على الإطلاق , يتم الآن إهمال علائم غير ملتبسة أو يتم تأويلها تأويلا اعتباطيا وكاذبا , في حين تعلن هي: أن أوروبا تريد أن تتوحد... أفكر برجال من أمثال نابليون وبتهوفن وستاندال وهانرش هاينه وشوبنهاور , ولا تؤاخذوني إن أضفت لهم ريتشارد فاغنر الذي يجب ألا نحكم عليه من خلال سوء فهمه لذاته. إذ قلما كان لعباقرة مثله الحق في فهم أنفسهم ".(نيتشه,2003 :238)

اما نابليون فقد كان المعيار و آخر نموذج مرجعي , انه بالنسبة لنيتشه آخر السياسيين الصالحين:

" أخيرا عندما ارتأى لنا من فوق الجسر , فيما بين قرنين من الانحطاط ,"قوة كبرى" من العبقرية والإرادة , قوة على قدر من الاقتدار لجعل أوروبا وحدة سياسية و اقتصادية ,كان يمكن أن تهيمن على العالم .ومرة أخرى أنهم الألمان بحروب "استقلالهم" هم من ثبطوا أوروبا من تلقي المعنى الجميل الذي يخفيه وجود نابليون ".(Nietzsche, 2011 :121) فالوحدة الاوروبية هي طريق السيادة , وهذا ما فعله نابليون : "*نابليون الذي أراد كما نعلم أوروبا موحدة لكي تصبح سيدة العالم "*.((Nietzsche, 1901 :350

إن نيتشه الذي يستخدم ضمير ال"نحن" في أكثر من مناسبة _خصوصا في كتابي العلم الجذل وكتاب ما وراء الخير والشر_ تعبيرا عن نوع من الانتماء السياسي الرمزي لقضية الوحدة الأوروبية. فتتكرر هته العبارة في المتن النيتشوي: "نحن الأوروبيون الصالحون الآخرون , نحن الفلاسفة الآخرون , نحن الأرواح الحرة ... . كل هذا يضاف اليه انسان نيتشه الأنسى ونيتشه نفسه , غايتهم وأملهم ومهمتهم السياسية هي تجسيد مشروع أوروبا الموحدة المرجو. فهذا الاستعمال لل"نحن" , *يظهر أن نيتشه ينظر لقرائه على أنهم رفاق في النضال , وأنهم ايضا مواضيع للسياسة الكبرى.* (dalie,2003 :58)

3. <u>المواطن الأوروبي أو الأوروبي الصالح</u>

يتحدث نيتشه بداية من كتاب العلم الجذل عن مفهوم الأوروبي الصالح , مفهوم سيتداول بتوسع أكبر في كتاب "ما وراء الخير والشر" , ثم سيظهر في شكل أكثر وضوحا في كتاب "إرادة القوة"* الذي سينشر للعلن عقب وفاة نيتشه.

مفهوم الأوربي الصالح هو مصطلح نيتشوي ذو بعد تداولي سياسي. وما يهم هنا هو تحديد ماهية وطبيعة هذا المصطلح وعلاقته ب"السياسة الكبرى".

إن مفهوم الأوروبي الصالح يحيلنا إلى تصور نيتشوي استشرافي لنوع خاص من نماذج المواطنة. فليس هذا الأوروبي الصالح هو مواطن إحدى الدول القُطرية الأوروبية على سبيل المثال , بل هو عبارة عن اصطلاح نيتشوي يهدف لبيان نموذج من المواطن المستقبلي الذي يصبو نيتشه تجسيده.

"إن الأوروبيين يسيرون نحو التماثل , نحو انعتاقهم المتنامي من شروط تنشأ بموجبها أعراق مقيدة مناخيا وطبقيا , نحو استقلالهم المتزايد من كل بيئة معينة تريد أن تخط مطالبها المتماثلة في النفس والجسد على مر الأجيال , وبالتالي سيظهر تدريجيا نوع بشري رحال جوهريا وما فوق قومي ,وبتعبير فسيولوجي نوع يبلغ الحد الأقصى في القدرة على التكيف ويتفنن فيه بوصفه خاصيته المميزة. إن هذه السيرورة نحو الأوروبي المقبل يمكن أن تخفف من سرعتها نكسات كبيرة قد تنميها مع ذلك إذ تزيدها سطوة وعمقا... ".(نيتشه,2003: 215)

الأوروبي الصالح هو نموذج كوني , مواطن لكل أوروبا. أو هو بصيغة أخرى ليس مواطنا بالمعنى الحرفي للكلمة. إنه نموذج للإنسان السياسي الكوسموبوليتيكي cosmopolitique, ولكن ليس بالمفهوم الرواقي أو الكانطي. فهو النموذج الذي يقترحه نيتشه بديلا عن مواطن الدولة القُطرية المتقوقع في ظل

* يتم التشكيك في مصداقية كتاب ارادة القوة عند كثير من الباحثين في المتن النيتشوي , وعلى رأسهم الايطالي جورجيو كولي. حيث أن الكتاب نشر بعد وفاة نيتشه , عن طريق أخته اليزابيت نيتشه _التي تحوم الشكوك حول انتماءاتها للفكر النازي _ . وهو في الأصل تجميع لعدة شذرات و نصوص لم ينشرها نيتشه في حياته الواعية. أيضا فقد تخلى نيتشه عن فكرة مشروع كتاب (ارادة القوة) في حياته الواعية , وعوضها بعديد الكتب الأخرى , حيث أن المتأمل في آخر كتب نيتشه (هذا هو الانسان) يسح فيه ختاما وخلاصة لأفكار نيتشه.

انتماءاته القومية الضيقة وفكرة الهوية الوطنية. إن نيتشه بهذا يدعو لإنسان أوروبا الموحدة.

مازال يسود في فرنسا اليوم , اليوم أيضا , جو من التفهم والترحاب بأنادر الناس, بأولئك الذين نادرا ما يرضون أو يقنعون بأي تقوقع وطني , لأنهم أوسع من ذلك ويعرفون كيف يحبون الجنوب في الشمال والشمال في الجنوب , بأولئك الذين ولدوا ليكونوا قاطني البلاد الوسطى وأوروبيين صالحين. (نيتشه,2003: 236)

ان هته الغاية لن تتحقق الا على أنقاض الدولة/الأمة : "*هناك حيث تنتهي الدولة يبدأ الإنسان الذي ليس فائضا عن اللزوم : هناك يبدأ نشيد الضرورة ,والطريقة الوحيدة التي لا مثيل لها للوجود* ".(نيتشه,2007: 106)

يريد نيتشه الأوروبي الصالح , ويأمل أن يكون فاتحة أمارات تسمح لإرادة أوروبا بالتوحد...نيتشه يعتقد بأن العمل الغامض لروح رجال العصر -القرن التاسع عشر- يمكن أن يظهر من خلاله ميلا شاملا يمكن أن يجمع من خلاله كل الباقين , أي محاولة تحضير أوروبي المستقبل.(jasper,1950 :232)

إن الأوروبي الصالح بهذا المعنى نموذج سياسي للإنسان الاوروبي الفاضل. يمكن أيضا للأوروبي الصالح أن يكون نموذج فلاسفة المستقبل الذي ينتظرهم نيتشه. كذلك يمكن تأويله على أنه النموذج السياسي للمصطلح النيتشوي "الإنسان الأسمى". أيضا هو انسان ما بعد الأخلاق المسيحية ولعدمية المساواتية , هو نموذج ينتظر منه الظهور عقب عملية قلب القيم. حيث تنتصر أخلاق السادة على أخلاق العبيد , وتسود ارادة القوة بدل ارادة العدم. فإرادة القوة هي *المحرك الوحيد للحقيقة وللحياة*. (bilheran,2005 :16)

يسمي نيتشه المفكرين الجيدين بأصحاب الروح الحرة , وأيضا ب"الأوروبيين الصالحين". وهو في هذا يدرج نفسه ضمن اطار هذين التصنيفين , فكثيرا ما يستعمل نيتشه ضمير ال"نحن" للتعبير عن هكذا مفاهيم.

"لقد اخترع الألمان البارود ,لهم كل التقدير! لكنهم ضيعوا كل شيئا إذ اخترعوا الصحافة , لكن نحن الذين لسنا يسوعيين ولا ديمقراطيين ولا ألمان بما فيه الكفاية , نحن الأوروبيين الصالحين , نحن الأرواح الحرة , الحرة جدا , لا نزال نمتلكها هي , نمتلك شدة الروح وشدة قوسها كلها! وربما الشهم أيضا والمهمة؟ ومن يدري ربما الهدف..." .(نيتشه,2003: 19)

الأوروبي الصالح هو نموذج الإنسان الأوروبي المتخلي عن كل العدميات الأوروبية , والداعم لفكرة الوحدة الأوروبية ولإرادة القوة , الأوروبي الصالح هو إنسان فطن لا تنطلي عليه خدع القوميات الأوروبية وما يصاحبها من انغلاق ثقافي ومعاداة للسامية. هو أقرب لأن يكون في الفكر النيتشوي نموذج مشروع مستقبلي يتوقع بأن يثور على واقع أوروبا السياسي وعلى تراث الحداثة السياسية. هنا يستطرد نيتشه :" *نحن الأوربيون الصالحون نوجد في حرب مع القرن الثامن عشر* ".(نيتشه,2011: 42)

الأوربي الصالح هو نقيض المواطن الدولاتي المتعصب لانتمائه الوطني والقومي. هذا الانتماء الذي تشرعه النزع الديمقراطية الصاعدة. هذا الأمر هو ما يجعله منه نموذجا للفكر السياسي المنحط وللعدمية. على النقيض يوجد "الأوروبي الصالح" ممثلا لنموذج الأفكار الراقية.

الأوروبي الصالح هو النموذج الموائم للسياسة الكبرى , نموذج الاقتدار المبدع في خدمة المشاريع الكبرى لمواجهة أفكار سياسة القطيع.

يمكن القول أن الأوروبي الصالح هو نموذج نيتشوي أصيل يمكن أن نرادفه مع مصطلح : المواطن الأوروبي. حيث يمثل نقيض القومية , الديمقراطية , النزعة الوطنية. هو باختصار نموذج مواطنة السياسة الكبرى.

"نحن ألمان أقل بكثير في المعنى الذي تأخذه هذه الكلمة على أيامنا , حتى نستطيع أن نرافع لصالح القومية وكره الأعراق , حتى نستطيع أن نتمتع بجذام القلب هذا , وبتسمم الدم هذا , الذي

يجعل شعوب أوروبا تنعزل عن بعضها , تتمترس وتضع نفسها في الحجر الصحي... نحن من لا وطن لنا ,إننا من أعراق مفرطة التداخل لتشكل رجالا عصريين ... إننا بكلمة أوروبيون صالحون , ورثة أوروبا..." .(نيتشه, 2001: 239-240)

يريد نيتشه أن يجعل من فكرة الأوروبي الصالح , غاية يجب أن تعمل الاستراتيجيات السياسية المستقبلية على تجسيدها , أي انه يهدف في مقاربة أخرى الى جعلها منهج تربية مستقبلية. أين أن *"مذهب الأوروبي الصالح {هذا} منهج بدون "محبة" يمكن أن نميز فيه نقدا ل"قلب القيم" , منهج للقيمة الموجودة , بيداغوجيا للقيم الاجتماعية المستقبلية "*.(tazerout, l'éducation vitaliste,1946 :144) وكبديل عن النظم الأخلاقية السائدة , *يهدف نيتشه لأن يلقن للأوربي الصالح أخلاقية "ما وراء الخير والشر" , أخلاقية جمالية خالصة*. (tazerout, critique de l'éducation,1946 :144)بحسب فيلسوف الانسان الأسمى.

يمكن القول أن الأوروبي الصالح هو ترجمة سياسية لمصطلح الإنسان الأسمى , هو عينه النموذج المرجو الذي سيتجاوز عطالات نموذج الإنسان الديمقراطي _خاتم البشر_ . حيث يرجو نيتشه به نوعا من السياسة الكونية _cosmopolitique_ , على النقيض من التوجهات القومية والدولاتية التجزيئية , التي تمثل "السياسة الصغرى".

4. مستقبل السياسة الكبرى والواقع الأوروبي الاستراتيجي :

كمستشرف , يتنبأ نيتشه بدخول أوربا في حروب طاحنة مترقبة , حروب ستغير وجه أوروبا للأبد. حيث ستعلن عن سقوط القوى التقليدية لصالح قوة جديدة صاعدة , قادرة حسبه في بعدها الايجابي على توحيد أوروبا. فيقول في اخر كتبه "هذا هو الانسان" : "*فكرة السياسية ستكون مستوعبة كليا داخل صراع الأرواح , وكل توليفات قوى المجتمع الهرم سيتم تفجيرها بما أنها مبنية كلها على الكذب: ستكون هنالك حروب ليس لها مثيل في تاريخ الأرض. انطلاقا مني فقط ستبدأ السياسة الكبرى على وجه البسيطة*."(Nietzsche,2011 :127)

رأى نيتشه في السياسة الكبرى سبيلا لتجاوز العدمية التي يبشر بها مستقبل أوروبا نتيجة انتصار الحداثة , التي لم تختلف عن الأخلاق المسيحية , إلا في ارتداءها صبغة دهرانية. لقد أراد نيتشه عبر السياسة الكبرى أن يقترح سبيلا آخرا كي تخرج أوروبا على إثره من ما بين سندان العدمية ومطرقة الانحطاط. كان الواقع الأوروبي -القرن التاسع عشر- يوحي بنزوع نحو نموذج الدولة القُطرية , وتجزئة أوروبا إلى كيانات سياسية صغيرة , تحكمها الأيديولوجيات الديمقراطية والاشتراكية. حيث سيسود النزوع نحو الاستراتيجيات السياسية الأكثر جمودا وهدوءا. بالنسبة لنيتشه فلم ير في هذا الجمود والسلام إلا مظهرا من مظاهر الانحلال , انه بالأحرى المرحلة الأولى التي تسبق السقوط. إن مكانة أوروبا العالمية مهددة تهديدا خطيرا , لأن إرادتها قد انحلت وتراخت , ولم تعد قادرة على مواجهة التحديات الكبرى مستقبلا , في ظل السياسة السائدة في عصر نيتشه. بينما كانت قوى أخرى تحتفظ بقوتها أو تشحد هممها , فان أوروبا بعدميتها البادية تتجه نحو الانحدار والهاوية. لذا حذر نيتشه من ما يسميه السياسة الصغرى , وأخطارها على مستقبل أوروبا السياسي , قائلا : " *إلا أنها [الإرادة] على أقوى وأدهش ما يكون في تلك الإمبراطورية الوسطية الضخمة حيث تعود أوروبا أدراجها إلى آسيا وكأنها نهر جار , أي في روسيا. هنالك تنتظر الإرادة على نحو مخيف إطلاقها , كي تستعير اللفظ العزيز على الفيزيائيين اليوم , ولا تزال تجهل ما إذا كانت إرادة للنفي أو للإثبات. فمن أجل درء أعظم الأخطار عن أوروبا لن تلتزم , على الأرجح حروب هندية وتورطات في آسيا وحسب , بل أيضا انقلابات داخلية , وتفتيت للإمبراطورية إلى أجسام صغيرة , وقبل كل شيء إدخال الحمق البرلماني , بما فيه واجب أن يقرأ كل واحد جريدته عند الفطور. ولا أقول هذا متمنيا: فقلبي ميال إلى العكس بالأحرى ,أعني إلى تزايد خطر روسيا إلى حد يدفع أوروبا إلى التصميم على أن تصير بدورها خطرة , وتحديدا أن تحظى بواسطة ثلة جديدة تحكم أوروبا , بإرادة موحدة , إرادة خاصة مرعبة وطويلة يمكن لها أن تحدد أهدافها لآلاف من السنين..كي يوضع أخيرا حد لمهزلة دويلاتها الطويلة وأيضا لتعدد إراداتها وتوزعها على*

أنظمة ملكية وديمقراطية .لقد ولى زمن السياسة الصغرى: القرن التالي سيجلب معه الصراع من أجل السيطرة على العالم _الإرغام على السياسة الكبرى."(نيتشه,2003: 167)

في هذا السياق يمكن استحضار المقاربة الخلدونية , فالحضارة تسقط متى ما جنح أهلها لحياة الرخاء والكسل والاستقرار. فنيتشه مثله مثل بن خلدون يرى بمصداقية فكرة الصراع. بل ان نيتشه يزيد عن ذلك فالصراع عنده ليس فقط من أجل ضمان البقاء مثلما يرى تشارلز داروين مثلا , بل أنه صراع من أجل اكتساب القوة و الاقتدار.

يقترح نيتشه احتمالين_رئيسيين_لتشكل السياسة الكبرى مستقبلا. إما أن الفشل السياسي في أوروبا سيقود إلى تدميرها وبالتالي ظهور تفاعلات جديدة لحكم العالم. وإما توحيد أوروبا سياسيا وبالتالي تصبح قادرة على حكم العالم.(jasper,1950 :232) وقد قال نيتشه بفكرة التحدي والاستجابة , واستخدم المثال الروسي , الذي يشكل على شدته وخطورته , تحديا ذا شأن يمكن أن يوقظ الهمة الأوروبية. "*عبر الوعي الأوروبي الذي شغل نيتشه , فانه يرى في روسيا , ليس فقط خطرا كبيرا على أوروبا , ولكن أيضا الإمكانية الكبيرة لإيقاظ أوروبا عبر تحفيز آلية الدفاع المضاد.*"(jasper,1950 :233)

تتجسد مصداقية أفكار نيتشه بفعل اعتباره متنبئا بارعا , بل انه يقترب ان يكون حامل نبوءات , وهو ما جعل بيتر سلوتردايك يطلق على أفكاره , ب(الانجيل الخامس).(سلوتردايك,2003 :11)

وفي نفس السياق يثني "كريستيان دولا كومباني" تقريبا على قدرات نيتشه الإستشترافية ورؤيته النافذة. ف"بعد أن نمت الوطنيات وتعددت على الرغم من تحذيرات نيتشه التنبؤية , وهو آخر المفكرين الكوزموبوليتيكيين ,انتهى الأمر بأن أثارت في قرننا (العشرين) حربين عالميتين تتماثل _بالنسبة للقارة الأوروبية_مع انتحار جماعي."(دولاكامباني,2003 :248) لقد أدى ما يسميه نيتشه ب"جنون القوميات" إلى تحقق التنبؤ

الثاني بدل الأول , أي انهيار مكانة أوروبا في سلم القوى العالمية.

* * *

رفض نيتشه مفهوم الدولة القطرية التجزيئية , أو ما يعرف بنموذج (الدولة\الأمة). حيث رأى فيه علامة من علامات الانحلال السياسي التي ترافق تصاعد النزعات الديمقراطية التي كان مقتها نيتشه ورأى فيها مثالا صارخا على العدمية السياسية للحداثة الأوروبية. ولتجاوز هذا الأمر دعى الى قلب القيم , وإعادة صياغة المثل والغايات. فنظّر للإنسان الأسمى بدلا من الانسان الديمقراطي_خاتم البشر_ , وللسياسة الكبرى كحل للخروج من الانسداد السياسي الذي يهدد مستقبل أوروبا. هذا ما يجعل من نيتشه معاديا صريحا لنموذج الدولة القطرية وللفكر القومي بعامة والفكر القومي الألماني بخاصة. هذا الأمر يقود الى تفنيد وصم نيتشه بالنزعة العنصرية العرقية _على ما نجده في بعض الدراسات_ . فمثل هته الاستنتاجات المتسرعة تحتاج لأكثر من إعادة فحص!

اقترح نيتشه مفهوم السياسة الكبرى كبديل لما سماه السياسات الصغرى , حيث يمثل الإنسان الأسمى النموذج المرجو ظهوره لحمل لواء السياسة الكبرى في شكله السياسي المسمى "الاوربي الصالح". على النقيض يوجد "خاتم البشر" أو المواطن الديمقراطي , نموذج للإنسان المعتدل المتوسط , الذي يمثل غاية الأفكار الديمقراطية , رامزا لعلامة الانحطاط والانحلال السياسي في المتن النيتشوي. فبالنسبة لفيلسوف القوة , فان السلام الدائم علامة على سكون أموات وركود ينافي مبدأ الحياة , ومن هنا مقولته : *إذا أردت السلام فاستعد للحرب!*

* * *

قائمة المراجع

باللغة العربية :

1. دولا كامباني , كريستيان (2003). الفلسفة السياسية اليوم , (نبيل سعد ,مترجم) , مصر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
2. سلوتردايك , بيتر (2003). الانجيل الخامس لنيتشه , (علي مصباح , مترجم), المانيا كولن :منشورات الجمل.
3. لوكاكش, جورج (1981). تحطيم العقل الجزء الثاني : شوبنهاور كيركغارد نيتشه ,(الياس مرقص , مترجم), بيروت: دار الحقيقة.
4. نيتشه , فريدريك (2001). العلم الجذل , (سعاد حرب , مترجم) بيروت: دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع.
5. نيتشه , فريدريك (2003). ما وراء الخير والشر: تباشير فلسفة المستقبل , (جيزيلا فالور حجار , مترجم), بيروت :دار الفارابي.
6. نيتشه , فريدريك (2007). هكذا تكلم زرادشت: كتاب للجميع ولغير أحد , (علي مصباح , مترجم) , بيروت : منشورات الجمل.
7. نيتشه , فريدريك (2011). إرادة القوة: محاولة لقلب كل القيم ,(محمد الناجي , مترجم), الدار البيضاء المغرب :افريقيا الشرق.
8. نيتشه , فريدريك (2013).(محمد الناجي , مترجم) , الدار البيضاء المغرب: إفريقيا الشرق.
9. نيتشه , فريدريك (2014). إنساني مفرط في إنسانيته:كتاب للمفكرين الأحرار الجزء الأول , (علي مصباح , مترجم) , بيروت : منشورات الجمل.

باللغة الأجنبية

10. Bilheran, Ariane (2005). la maladie critère des valeurs chez Nietzsche , France :édition l'Harmattan.
11. Dalie, Giroux(2003). L'unité de la forme et du fond et la grande politique Nierzschéenne , *Sociétés*, vol. n^{o} 81, no. 3.
12. Jaspers, Karl(1950). Nietzsche: introduction a sa philosophie (Henri Niel, Tr) , France : édition Gallimard.
13. kynast, Pierre (2014). le surhomme de Friedrich Nietzsche: une introduction philosophique (Fréderic Clarke, Tr), paris : édition PKP.
14. Nietzsche ,Frederick (1901). Le gai savoir (Henri Albert, Tr) ,paris : édition mercure de France.

15. Nietzsche ,Frederick (1907). Considérations inactuelles première série (Henri Albert, Tr),paris : édition mercure de France.
16. Nietzsche ,Frederick (1913). Par delà le bien et le mal (Henri Albert, Tr) ,paris : édition mercure de France.
17. Nietzsche ,Frederick (jan 2011). Ecce homo, (Alexandre Vialatte, Tr) , édition œuvres ouvertes (version électronique).
18. Tazerout, Mohand(1946). les éducateurs sociaux de l'Allemagne moderne: critique de l'éducation allemande , paris : nouvelles édition latines.
19. Tazerout, Mohand(1946). les éducateurs sociaux de l'Allemagne moderne: l'éducation vitaliste , paris : nouvelles édition latines.